الحرب وسردياتها المتصارِعة: هل نحتاج إلى رواية واحدة؟

سيلين إبراهيم

في أحد الصفوف الجامعية، وعند ساعة الاستراحة ونحن متحلّقين مع بعضنا، صودِف أنه يوم ١٣ نيسان، طرَح علينا أحد الزملاء سؤالًا: «متى انتهت الحرب الأهلية اللبنانية؟».

تردّد البعض، أجاب آخرون بـ«١٩٩٠»، لكن إحدى الزميلات ابتسمت وقالت: «يعني إذا فعلًا خلصِت!» ضحكنا. ثم سألَنا: مَن حارب مَن؟ توقّفنا عن الضحك. كل واحد منّا بدأ يروي قصة مختلفة. منهم مَن قال إن اللبنانيين حاربوا بعضهم، منهم من ناقضوا تلك الفكرة وجاوبوا بانفعال: لا ليسوا اللبنانيين بل جماعات أرادت ان تتصارع على أرضنا؛ ومنهم من قال إنه تدخُّل خارجي أدّى الى تحوُّل لبنان من بلد الازدهار والتطوُّر إلى ساحة معركة كان بالغنى عنها!

كل واحد يملك «حقيقة» خاصة به عن الحرب. وكأن كل واحد منا عاش في زمن معيّن وحفظ قصة معيّنة؛ سؤال بسيط، كشف فجأة عن جُرح لم يلتئم، عن ذاكرة منقسمة، وعن وطن يعيش في أكثر من رواية؛ سؤال كان السبب في أن نعرف أن لكل جماعة روايتها وإننا بعيدين كل البُعد عن الحقيقة.

ما كان صادمًا في تلك اللحظة، ليس فقط التناقض بين القصص، بل اليقين الذي كان يظهر في نبْرة كل شخص. كل طرف بدا واثقًا من روايته كأنها نصٌّ مقدّس، غير قابل للنقاش. من هنا يتبيّن أن الحرب لم تكن فقط معركة على الأرض، بل أيضًا معركة على الرواية.

كيف تُبنى السَّرديات؟

لا نُولد بسردية جاهزة. نحن نسمعها، نتشرّبها، نردّدها ننشرها نُحاكيها بطريقتنا، نعدّل فيها ونتوارى خلْفها، وكلها تأتي في أُطر مغايِرة عن الثانية.

في لبنان، يبني الناس رواياتهم عن الحرب من مصادرهم الخاصة: الجدّ الذي قاتل «دفاعًا عن منطقته»! الأهل الذين يروون الحكاية بحسب وجهة نظرهم! الجارة التي هُجّرت من بيتها! الحزب الذي يُحيي ذكرى «المقاومة» أو «الصمود»! الراوي في كتابه من وجهة نظره أو حتى صمت المدرسة التي تتجنّب الحديث عن الحرب كأنها مرَض مُعدٍ أو كأنها جريمة من المُعيب التحدّث عنها.

غياب كتاب تاريخ موحّد لا يعني فقط أن أبناء المدارس لا يعرفون ما حصل؛ بل يعني أنهم يتخرّجون وكل منهم يعرف «شيئًا مختلفًا» عن الحدَث بحدِّذاته. السَّرديات تتكوّن حين تُكرّر القصة نفسها، بصوتٍ مألوف، في بيئة تُشبهنا. المشكلة تكمن في أن القصص لا تلتقي، لا تتحاور، لا تعترف ببعضها البعض ولا تشبه بعضها، النتيجة: ذاكرة جماعية ممزّقة، كل طرف فيها مُقتنع بأن روايته هي الرواية الحقيقية.

في الحالات الطبيعية وفي بلاد أخرى، وفي بلدان أخرى، حتى حين تختلف الروايات حول الأحداث، ثمّة على الأقل سردية رسمية مرجعية تُدرَّس للطلاب ويعود إليها المواطنون عند الحاجة. أما في لبنان، فالفراغ ترَك لكل جماعة فرصة كتابة تاريخها

الخـاص، معتمـدة علـى الخـوف والذاكـرة الانتقائيـة.

السَّرديات لا تنشأ مـن فـراغ، بـل تتكـوّن عبـر خطـاب يومـي متواصـل: أغنيـة، لوحـة، شـارع يُسـمّى باسـم معركـة، أو نُصُـب تذكاري لشـهيد مجهـول عنـد زاويـة طريـق. كل هـذه العناصـر ترسّـخ صـورة معيّنـة للماضـي، وتحفُرهـا فـي الوعـي الجَمعـي.

ماذا يعني غياب سردية موحّدة؟

فـي بلـد خـرج مـن حـربٍ طويلـة، مـن الطبيعـي أن تكـون هنـاك روايـات متعـدّدة. لكـن حيـن تصبـح هـذه الروايـات جدرانًـا تفصـل بيـن النـاس، تتحـوّل مـن تعدُّديـة إلـى انقسـام.

غيـاب السـردية الموحّـدة فـي لبنـان ليـس مجرَّد مسـألة تاريخيـة. هـو أزمـة هويـة. هـو أزمـة ضَيـاع حيـن لا نتّفـق علـى مـا حصـل، كيـف يمكـن أن نتّفـق معًـا علـى مـا نريـده وكيـف؟ وكيـف يمكـن أن نكـون فـي إطـار موحّـد ضمـن قصـة واحـدة جامعـة تُخبرنـا عـن سـبب وقوعهـا.

ربمـا مـا نحتاجـه ليـس سـردية موحّـدة بالمعنـى الضيّـق، بـل مسـاحة للسَّـرديات المتعـدّدة أن تتواجـه، تتحـاور وتتعاطـف. لا أن تتقاتـل مـن جديـد.

الاعتـراف بالتعـدُّد لا يعنـي الاستسـلام للانقسـام، بـل قـد يكـون خطـوة أولـى نحـو العدالـة. حيـن يقـول كلّ منّـا قصتـه، ويسـمع قصّـة الآخـر، يبـدأ شـيء مـن الشـفاء. لا لأننـا اتفقنـا، بـل لأننـا احترمنـا الاختـلاف دون نكـران أو اسـتعلاء.

قـد تكـون السَّـردية الجامعـة التـي نبحـث عنهـا، فـي الحقيقـة، هـي سـردية الصِّـدق: أن نقبـل بـأن الحـرب

من أرشيف «أمم»

لـم تكـن قصـة واحـدة، بـل عشـرات القصـص، متناقضـة، مؤلمـة، ولكنهـا جميعهـا حقيقية.

كـم مـن مـرّة دخلنـا فـي نقـاش مـع صديـق أو قريـب حـول «مَـن بـدأ الحـرب وكيـف»، أو «مَـن كان علـى حـقّ»، لينتهـي النقـاش بموجـة توتُّـر أو صمـت ثقيـل؟ هـذا ليـس خلافًـا فـي الـرأي فقـط، بـل اختـلاف علـى أساسـيّات بنـاء الذاكـرة.

غيـاب روايـة مشـتركة يعنـي أيضًـا غيـاب شـعور موحّـد بالعدالـة. مَـن يشـعر بأنـه ضحيـة، لا يـرى نفسـه فـي روايـة الآخـر... والأسـوأ، أنـه قـد يشـعر بـأن الألـم الـذي عاشـه يُنكـر أو يُحقَّـر كلّمـا طُرحـت روايـة مغايـرة. والنتيجـة؟ شـعور دائـم بالخِـذلان، وبـأن لا أحـد يفهـم الآخـر فعـلًا. كأن الحـرب لـم تنتـهِ، بـل انتقلـت مـن الشـارع إلـى الذاكـرة.

نـرى هـذا الانقسـام فـي كل مـكان: فـي السياسـة، فـي الإعـلام وحتـى فـي الفـن. حفـلات تأبيـن أو احتفـالات «نصـر» تتزامـن فـي التواريـخ، لكـن تختلـف فـي اللغـة

والرمـوز. مجـازر تُـروى بشـكل بطولـي فـي جهـة، وتُعتبـر وصمـة عـار فـي جهـة أخـرى. لا عجـب أن المصالحـة فـي لبنـان لـم تتحقّـق فعليًّا: فكيـف نتصالـح مـع مـاضٍ لا نتّفـق علـى سـرديته؟

هـذا الغيـاب ينعكـس حتـى علـى حياتنـا اليوميـة: حيـن يتجنّـب البعـض الحديـث عـن الماضـي خوفًـا مـن فَتـح جـراح قديمـة، أو حيـن يسـتخدم آخـرون الحـرب كذريعـة لخطـاب تعبَـوي جديـد. نحـن عالقـون فـي دوّامـة صمـت وصـراع غيـر معلَنيـن.

هل نحتاج إلى سردية موحّدة؟

السؤال ليس بسيطًا.

قـد يقـول البعـض إن السـردية الموحَّـدة ضروريـة لبنـاء وطـن واحـد. فكمـا يحتـاج الجسـد إلـى قلـب واحـد، تحتـاج الدولـة إلـى ذاكـرة جامعـة. روايـة تُمثّـل الجميع، لا تسـتثني أحـدًا، بـل تعتـرف بالضحايـا جميعًـا، وتُديـن الجرائـم كلهـا، دون تبريـر.

لكـن فـي واقـع متشـظٍّ كلبنـان، هـل هـذا ممكـن؟ أم أن محاولـة فـرض سـردية واحـدة سـتؤدّي فقـط إلـى إسـكات أصـوات أخـرى؟ أليسـت هـذه مجازفـة بإعـادة إنتـاج الظُّلـم تحـت اسـم الوحـدة؟

ربمـا مـا نحتاجـه ليـس سـردية موحّـدة بالمعنـى الضيّـق، بـل مسـاحة للسـرديات المتعـدّدة أن تتواجـه، تتحـاور، تتعاطـف. لا أن تتقاتـل مـن جديـد.

ربما نحتاج إلى الحقيقة الكاملة الواضحة والصريحة.

أن تعامُـل الجيـل الجديـد مـع الحـرب ممكـن أن يكـون سـبب انقسـام يُضـاف إلـى مـا نعيشـه اليـوم. إن حاجتنـا كشـباب، اليـوم، ليـس فقـط أن نفهـم مـا الـذي حصـل بـل أن نسـتخلِص منـه العِبـر، أن نرويـه للجيـل القـادم. فبعـد مـرور ٥٠ عامًـا علـى الحـرب أصبـح مـن الضـروري طـيّ صفحـة هـذا الكتـاب بروايـة موحَّـدة جامعـة تُروى بلسـان واحـد لكافـة الأجيـال.

من الرواية إلى المستقبل

فـي غيـاب الروايـة الجامعـة، يصيـر الماضـي عبئًـا لا مصـدرًا للفَهـم. هنـاك مَـن يصمـت خوفًـا مـن الجـراح، وهنـاك مَـن يُعيـد اسـتثماره لصناعـة أعـداء جُـدد.

فـي ختـام هـذا السِّـجال فـي ذلـك الصـف الجامعـي وتلـك الاسـتراحة القصيـرة، لـم نصـل إلـى جـواب موحّد. لكننـا خرَجنـا بأسـئلة.

سـألنا أنفسـنا: هـل مـا سـمعناه فـي بيوتنـا كافٍ لفَهـم مـا حـدث؟ هـل سُـردت القصـة كاملـة؟ أم فقـط الجـزء الـذي يُناسـب البيئـة التـي نشـأنا فيهـا؟

غيـاب السَّـردية الموحّـدة ليـس مجـرّد فوضـى روائيـة، بل علامـة علـى ألـم لـم يُفهـم بعـد. ربمـا تبـدأ المصالحـة لا بتكـرار روايـة واحـدة، بـل بالاسـتماع لـكل الروايـات. ربما تُبنـى الأوطـان لا علـى النسـيان، بـل علـى ربمـا الكتابـة، وربمـا الاسـتماع، وربمـا الحكايـات الصغيـرة التـي نُرويهـا لبعضنـا البعـض، هـي الطريـق نحـو وطـن لا يُجمّـل ماضيـه، ولا يهـرُب منـه، بـل يعتـرف بـه بـكلّ تعقيداتـه.